

قراءة في المناهج الحديثة في تفسير القرآن الكريم

عبد الجليل م.

- باحث، قسم العربية، جامعة كاليكوت، كالكوت، كيرلا

Email: jaleelernad@gmail.com

إن العولمة التي اكتسحت العالم فرضت أنماطا جديدة في التفكير وقد تغير الخطاب من الأحادية القطبية إلى الثنائية القطبية ومنها إلى التعددية، إن العولمة حققت عالما تلاشت فيه الحدود الجغرافية وتتداخل فيه الثقافات الوطنية وتقبل واقع التعددية، ولذلك مرت بنا صراعات أيديولوجية جذرية عديدة، وقد وصل حقل الفكر الايديولوجي من صراع الحضارات إلى الحوار ومنها إلى اندماج الحضارات، ونقول أن متطلبات عصر تختلف تماما دون عصر، ومن هذا المنطلق بدت محاولات التغيير في منهجية التفسير من سؤال لا تزال تلح على المسلمين هل أن الاتجاه التي نتبئى كاف لتستعيد الأمة إلى فعاليتها؟ وما هي أسباب تقهقر الأمة المسلمة في عصرنا الراهن؟ كيف نصوغ عقل هذا المسلم مرة أخرى حتى يعود إلى فعاليتها؟ وما هي شروط النهضة ليستعيد المسلمون فاعليتهم المفقودة؟ ومن هنا ظهرت منهجيات جديدة في تفسير القرآن الكريم، وليس في وسعي القول الفصل بأن هذا منهج خاطئ إسلاميا وهذا صحيح وإنما اريد سرد هذه المناهج للإمام بالسنياريوهات الحديثة بهذا الصدد.

ولا يشك احد في أن تطبيق القرآن الكريم هو الذي يلعب الدور الريادي في بناء مقومات الحضارة الاسلامية، وكانت حالات الازدهار والانحطاط في سير الحضارة الاسلامية بناء على تجسيد المنهج القرآني في التفكير، ولذلك سعى كثير من العلماء القدماء إلى ربط وشائج المجتمع مع القرآن الكريم، فأضحى التفسير ميدانا واسعا تتجلى فيه تيارات الفكر الاسلامي في مختلف العصور - ربما كانت غير مناسبة لتشخيص أوضاعهم - وصار النص

القراني يتشكل في وعي الباحثين في صور مختلفة بناء على صياغة الرءى والمواقف المحددة ازاء مشكلاته وقضاياها.

وقد تراكمت التفاسير عبر القرون ولم تخل حقبة من الزمن الا صدر فيها تفسير للقرآن الكريم، بأن اللذين ينادون إلى ضرورة تبني اتجاه جديد يرون أن هذه التفاسير لا تكفي لمتطلبات عصرنا، وكثير من هذه المؤلفات تمثل عصر انحطاطهم أي عصر الشروح وشرح الشروح والحاشية وحاشية الحواشي والهوامش وتجريد المتون وتخريج الاحاديث والتعقبات، وإنما سارت هذه التفاسير على نسج واحد في زخرفات متعددة، وهكذا ساهم الفيلسوف، والفقهاء، والمحدث، والبلاغي، والصوفي والعارف وغيرهم نصيبهم وكل حزب بما لديهم فرحون، وبذلك تحول ميدان التفسير إلى منتدى علوم غريبة كما قال السيد محمد حسين الطباطبائي "حتى آل الأمر إلى تفسير الآيات بحساب الجمل ورد الكلمات إلى الزبر والبيئات والحروف النورانية والظلمانية وغير ذلك"¹

حسب تعبير العلامة الطباطبائي نقول: وقد هام البعض وغاص بباء البسمة وصاد الصراط حسب قول السيد جمال الدين الافغاني²، وبذلك شددت شردمة من العلماء على ضرورة وعي القرآن وعيا جديدا للتخلص من ترسبات التأويلات المتنوعة التي حجبت النص القرآني ولتحرير الآيات القرآنية من القيود والحدود، وينادون أن الأطر التقليدية للتفسير لا تتسع لتحولات العصر ومستجداته واستفهاماته، والقرآن كتاب لا يختص بزمان دون زمان، ولا يُعنى بمشكلات قوم دون سواهم.

بواكير الاتجاهات الحديثة

¹ . السيد محمد حسين الطباطبائي.الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،

1411 هـ - 1991م، ج 1: ص 10

² . قدرى قلعي. ثلاثة من أعلام الحرية: جمال الدين الافغاني - محمدعبد - سعد زغول. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1994 م، ص 20

يجمع الدارسون على ان السيد جمال الدين الافغاني عملاق الفكر الاسلامي كان أول من تصدى إلى اعادة النظر في مناهج التفاسير القديمة، بأن مشروعه يعتمد على تطبيق الدين في الواقع، وأنه قام بتشخيص أمراض الامة وعلاجها لإيقاظ الامة من كبوتها، وكان جمال الدين أول مفكر مسلم في العصر الحديث يؤكد بصراحة ان السبيل الوحيد لنجاة المسلمين هو العمل بأحكام القرآن وتطبيقها في الحياة¹، ويرى ان بعث الأمة واستنهاضها لن يتحقق من دون «بعث القرآن، وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت، من حيث يأخذ بها إلى مافيه سعادتهم دنيا وأخرة»²، وكان يرى أن تقديس التفاسير القديمة التي تراكمت حول النص القرآني عبر القرون هو السبب الرئيسي في قعود المسلمين عن تشكيل منهج التفسير الذي يوافق مع متطلبات العصر، والجمهور يرون اليها نظرة مقدسة بدون تأمل ولا تروّي وأن هذه التفاسير قد اختلطت بملايسات الاوضاع وعقيدة المفسر ونمط فكره وأفكاره مستنبطة من بيئته الخاصة، ولذلك حذر السيد جمال الدين الافغاني بشدة من الخلط بين النص القرآني «وما تراكم عليه، وتجمع حوله من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم» ووضع حداً فاصلاً بين آراء الرجال هذه والنص القرآني، وبلور منهجاً واضحاً للتعاطي مع الثاني «كوشي» والأول الذي «نستأنس به كرأي» فحسب. من هنا يجب ان نميز رأياً لمفسر بدقة «ولا نحمله على اكفنا مع القرآن»³.

وكان جمال الدين الافغاني يستهل مجلته 'العروة الوثقى' بتفسير الآيات الكريمة حسب منهجه ولذلك تناول قضية التخلف الحضاري وهيمنة الاستعمار والضعف الداخلي للأمة المسلمة وعوائق النهوض ومشروعة

¹. جمال الدين الأفغاني. الأعمال الكاملة. تحقيق: د. محمد عمارة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981 م، ج 2: ص 67.

². عبد القادر المغربي. جمال الدين الأفغاني: ذكريات وأحاديث. القاهرة: دار المعارف، 1948 م، ص 27

³. عبد القادر المغربي. جمال الدين الأفغاني: ذكريات وأحاديث. القاهرة: دار المعارف، 1948 م، ص 27

النهضة .. الخ فصار تفسيراً بأسلوب مختلف للآية، تفسيراً لا يتورط في نقض وإبرام أقوال المفسرين، ولا يستغرق في متاهات لفظية لا تتصل بالحياة، ولا يفتعل مشاغل فكرية تبتعد عن هدف القرآن في هداية الإنسان، وإنما هو تفسير اجتماعي يقنن موقف المواطن والأمة حيال القضايا الحياتية المتنوعة، ولم يسلك هذا المسلك أحد من أسلافه، فباشر بذلك تجربة رائدة في رسم أصول «التفسير الاجتماعي للقرآن».

وواصل تلميذه الشيخ محمد عبده تطبيق منهج أستاذه الأفغاني ، ووضع حداً فاصلاً في قضية تناول التراث الهائل في علم التفسير حيث يقول محمد عبده : «وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله، ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه، واحمل بنفسك على ما يُحمل عليه، وضم إلى ذلك مطالعة السيرة النبوية، واقفاً عند الصحيح المعقول، حاجزاً عينيك عن الضعيف والمبدول»¹ وأوضح ان التفاسير السابقة ابتعد الكثير منها عن مقصد الكتاب الكريم، عبر استغراقها في مباحث البلاغة والاعراب، وتتبع القصص، وغريب القرآن، والأحكام الشرعية، وعلم الكلام، والمواعظ والرفائق، والاشارات الصوفية. ومن هذا المنطلق التاريخي حرص المصلحون من علماء الدين على ترسيخ صلة الأمة بالقرآن، وباشروا تجارب رائدة في التفسير وصرح الكثير منهم بعجز التفاسير السابقة عن تلبية متطلبات الأمة المتنوعة، ومن هذه الزمرة الشيخ ابو الاعلى المودودي صاحب 'تفهيم القرآن' والشيخ محمد بن عاشور صاحب 'التحرير والتنوير' و السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب «الميزان في تفسير القرآن ، وهنا يقول السيد الشهيد محمد باقر الصدر «ان قروناً من الزمن متراكمة مرت بعد تفاسير الطبري والرازي والشيخ الطوسي، لم يحقق فيها الفكر الإسلامي

¹ . محمد عبده : الأعمال الكاملة : دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة : بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ج 1 : ص 589 .

مكاسب حقيقية جديدة، وظل التفسير ثابتاً لا يتغير إلا قليلاً خلال تلك القرون، على الرغم من ألوان التغيّر التي حفلت بها الحياة في مختلف الميادين¹، ونرى هنا العلة التي أبعدت المسلمين عن الواقع في تناول النص القرآني.

تقسيم مناهج التفسير

يستطيع الناظر إلى التراث التفسيري أن يقسم مناهج التفسير بالقراءة للماضي والحاضر إلى الأطوار الآتية :

الطور الأول : المنهج في هذا الطور امتداد لمناهج التفسير وطرقه التقليدية، وهي الاعمال التي ترد تكراراً للسابق دون أصالة من المؤلف مثلاً التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي وتفسير القرآن للناشئة والشبيبة لكريمان حمزة.

الطور الثاني: هذا منهج حديث وأن نسبة التجديد فيه عالية وهي تقع في صميم المنهج مثلاً: تفسير في ظلال القرآن لسيد قطب وكيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالي ويوسف القرضاوي.

الطور الثالث: وفيه يرد الجديد والمعتمد عند المدرسة الاستشراقية الحديثة مثل قراءة جولد زيهر للقرآن والسنة.

الطور الرابع: هذا منهج الحداثة وقضايا الواقع وهي مجموعة مناهج وليس منهجا واحدا إذ كل علم فيها أو عمل فكري يعد قائما برأسه ويجمعها جميعا أن أصحابها متأثرون بالاتجاهات العالمية - الغربية منها خاصة - أو الفلسفات الغربية الحداثية أو الماركسية فهي لا تعد أكثر من كونها صدى لأفكار وفلسفات غربية عن المجتمع المسلم وفلسفته مع كون الأعمال المؤلفة فيها صدرت من مسلمين او ممن يعيشون في المجتمعات الإسلامية مثلاً : مدخل القرآن لمحمد عابد الجابري والقرآن من التفسير إلى تحليل الخطاب لمحمد أركون.

¹ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم. صدر عن دار الشروق، في 560ص، سنة 1996 م

قراءة للحاضر : محمد أركون ومحمد عابد الجابري (أنموذجين)

وقد مهّد محمد عابد الجابري لكتابه الجديد «فهم القرآن الحكيم» (صدر عن مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت 2008)، بمؤلفه السابق «مدخل إلى القرآن» الذي صاغ فيه مبادئه الفكرية والمنهجية، وترك في حينه أصداء واسعة، ثم اتجه لإعادة تفسير القرآن، في كتابه الجديد، على ضوء اقتناعه بأن القرآن يخاطب أهل كل زمان ومكان، وبالتالي يخاطب أهل العصر، وقد اتبع، في ذلك، المنهج ذاته الذي اتبعه في كتابه السابق، مبيّناً أن (فهم القرآن) لا يتعلق بمجرد النظر في (النص)، وفي التفسيرات السابقة، بل يجب أن يتم (الفصل) عن تلك التفسيرات، بربطها بزمانها ومكانها، وبحمولاتهما الأيديولوجية، كي يتم (الوصل) بين النص وعصرنا¹، وقد حصل هذا التفسير على ردود افعال كثيرة قاتلة بأن هذا اتجاه علماني للقرآن².

أن محمد أركون مؤرخ الفكر الإسلامي، الذي لا تشفي غليله تلك الدراسات التي اهتمت بالظاهرة القرآنية، فهي قاصرة عن بلوغ المستوى العلمي النقدي المطلوب. ولا يقصر هذا الحكم على الدراسات التي سادت في الفكر الإسلامي، قديمه وحديثه، وإنما يسحبه على الدراسات الاستشراقية، قديمها وحديثها. من هنا، كانت المنهجيات التي اهتمت بالظاهرة القرآنية ثلاثاً، يبحث عن مكامن القصور فيها ويدل ويبيّن بالدراسة الجديدة التي يراها موفية بالمعايير العلمية³:

1- القراءة الإيمانية:

يقصد أركون بالقراءة الإيمانية، أو اللاهوتية، كل التراث التفسيري الذي خلفه المسلمون، وكل ما دون عن القرآن الكريم، قديماً وحديثاً. وبعبارة

¹ www.aljaberi.net

² تاريخ الفلسفة والفكر الإسلامي لشمس الدين الكيلاني على موقع www.alukha.net

³ محمد أركون والمنهج الألسني النقدي في دراسة الظاهرة القرآنية لأحمد بوعود باحث مغربي للتواصل: ahmedbouaoud@yahoo.fr

أخرى، هو كل تعامل مع القرآن الكريم يرسخ الإيمان ويثبتته في نفوس المومنين. وتتميز هذه القراءة بخاصيتين ملازميتين لها:

2. القراءة التاريخية الأنثروبولوجية:

لا يميز أركون في هذه القراءة بين الباحثين المسلمين وبين الباحثين الأوروبيين، وإن كان المقصود من هذه القراءة هم الباحثين الأوروبيين. ويطبق عليها المعيار الإبستمولوجي الذي يطبقه على القراءة الإيمانية، والذي يتمثل في التمييز بين موقف الإيمان وبين موقف العقل النقدي.

3- القراءة الألسنية والسيمائية النقدية:

إن القراءتين التيولوجية الإيمانية والتاريخية الاستشراقية تعانيان من ثغرات كبيرة، فهما في نظر أركون غارقتان في دائرة اللامفكر فيه. كما أن المعايير المطبقة في المجالين لا تتسجم مع المناهج اللغوية والنقدية والأدبية الحديثة. من هنا يقترح أركون منهجية جديدة في قراءة النص القرآني باستخدام المعارف اللغوية والسيمائية والنقدية.

إن هناك حركة "نسوية إسلامية" في العالم الإسلامي وإن كانت أقلية وموضع انتقاد واسع. ، وتريد هؤلاء النساء اللواتي يشكلن أقلية إعادة عملية تفسير القرآن لمكافحة التمييز ضد المرأة خاصة في قوانين الأسرة. وكانت الحركة النسائية بدأت بالظهور في بداية القرن العشرين في العالم الإسلامي وخاصة في مصر. أما مصطلح "النسوية الإسلامية" فقد ظهر في تسعينات القرن الماضي. وعقد أول مؤتمر دولي لها في برشلونة في 2005 حيث أطلقت دعوة "للجهاد من أجل المساواة بين الرجل والمرأة" ترأس هذه الحركة أمينة ودود وأمثالها.

وأقول في الختام إنما أردت الوقوف على أحدث الاتجاهات في التفسير وعلوم القرآن ليواكب الطالب حركة الفكر حول النص القرآني داخل المجتمع

المسلم أو الخارج من خلال قراءتي البسيرة ولم أستطع التركيز على نقاط الجدة والابتكار والأغلاط والأخطاء- والله ولي التوفيق.

الهوامش

1. السيد محمد حسين الطباطبائي.الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1411 هـ - 1991م
2. قدرى قلعي. ثلاثة من أعلام الحرية: جمال الدين الأفغاني - محمد عبده - سعد زغلول. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1994
3. جمال الدين الأفغاني. الأعمال الكاملة. تحقيق: د. محمد عمارة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981
4. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم. صدر عن دار الشروق، ، سنة 1996 م
5. تاريخ الفلسفة والفكر الإسلامي لشمس الدين الكيلاني، على موقع www.alukha.net
6. محمد أركون والمنهج الألسني النقدي في دراسة الظاهرة القرآنية لأحمد بوعود باحث مغربي للتواصل: ahmedbouaoud@yahoo.fr
7. www.ar.wikipedia.com
8. www.alshabaka.net
9. www.alsaid.net
10. www.middle-east-online.com
11. Bodhanam bimonthly، vol.12 issue:2، Nov-Dec 2009
12. Bodhanam bimonthly، vol.13 issue:1، Jan-Feb،2010
13. www.islamonline.net
14. www.aljaberi.net